ن رسائل الأب صفرونيوس



تمييز عمل الروح القدس في القلب

٢٠١٧

من رسائل القديس صفرونيوس

تمييز عمل الروح القدس في القلب

٢٠١٧

اسم الكتاب : تمييز عمل الروح القدس في القلب؛
المؤلف :من رسائل القديس صفرونيوس
الناشر :جذور للنشر – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
المطبعة :جي سي سنتر ١٤ ش محود حافظ - ميدان سفير - مصر الجديدة
الطبعة :الأولى أكتوبر ٢٠١٧



مقدمة:

صفرونيوس الذي يشعرُ بثِقلِ الجسد وبالأيامِ كوخز الإبر، يطلب صلواتكم، لكي بمعونة ونعمة ربنا يسوع المسيح أعبر بحر هذا العالم وأنطلق إلى كورة الأحياء، بشوق ومحبة القديسين الذين سلكوا ذات الطريق.

أسألكم أيها الإخوة أن تذكروا ضعفي عند إصعاد الذبيحة المقدسة لكي أنال النياح مع آبائي، ومعهم أُسبِّح وأُمجِّد الثالوث القدوس، الذي شاء أن يجعل لنا وجوداً وحياةً من أجل تدفق خيرات وصلاح محبته الفائقة.

حقيقة التسبيح

١– أعطانا الربُّ الإله موهبةَ الإدراك والنطق لكي نضيف نحن المخلوقين من العدم تسبيحاً يفوق تسبيح القوات السمائية؛ لأننا نسبِّح ونمجِّد الآب في ابنه وبالروح القدس.

والتسبيح –أيها الأحباء– ليس مجرد نطق كلمات، بل هو امتلاء القلب من حرارة المحبة، لكي تتحول هذه المحبة إلى تسبيحٍ عقليٍّ يفوق الكلمات، وعندما تهدأ هذه الحرارة، أي حرارة الروح، نتكلم بكلمات الإدراك والفهم.

٢– نحن نذوق أولاً بالقلب، ثم نتكلم بالعقل وبقدرة النطق. نرى أولاً، ونتكلم ثانياً. والكلام بدون الرؤية هو كلامٌ عادمُ الحياة. وهذه هي شهادة المزمور: «ذوقوا وأنظروا» (مزمور ٣٤: ٨)؛ لأن الذي يذوق أولاً، يستطيع –بالنظر العقلي– أن يدرك مقدار النعمة الإلهية التي سكبها الآب السماوي

حسب شهادة الرسول: «محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بعطية الروح القدس» (رو ٥: ٥). وهكذا، نحن ننال هذه المحبة الحارة لكي نسبِّح ذاك الذي كان ينتظر من قبل خلق العالم أن يفتح ينابيع جوده وطوفان مياه محبته لكي يُحيي الخليقةَ ويُميت الخطية وينقل أوجاع الشر إلى بئر العدم.

وهكذا ننال نحن هذه العطية الفائقة لكي ننتقل من رتبة الخليقة المنظورة غير العاقلة مثل الصخور والأحجار إلى رتبة الخليقة غير المنظورة مثل القوات السمائية، ونصبح الوسيط الذي به يتَّحد العالم المنظور بالعالم غير المنظور.

٣- لقد خلقنا الآبُ السماوي لكي نشبع من فيض جوده. بَينَ اللهِ المثلث الأقانيم والخليقةِ ثلاثةُ حدودٍ لا يمكن أن تعبرها الخليقة: حد العدم، حد الطبيعة، حد غاية الوجود. وحَدُّ العدم هو المصدر الأول لكل الأشياء. نحن خُلقنا من لا شيء[1] أي من اللاوجود. وتحمل طبيعتنا هذه العلاقة مع اللاوجود؛ لأنها تنحل وتعود إلى الأرض، أي إلى التراب.

والحدُّ الأول مثل الحدِّ الثاني، كلاهما مثل دائرةٍ مغلقةٍ لا يمكن لأي كائن مهما كانت رتبته أن يتعدَّى هذه الدائرة. وهكذا سقط آدمُ الأول، إذ تعدَّى حدود خلقته، وطلب الأُلوهة بدون نعمة الله، فصار تحت شريعة الطبيعة واستُعبد للطبيعة المخلوقة من العدم. وعندما وجد أن الأُلوهة مستحيلةٌ، وأنه عدمٌ، أدرك على الفور معنى كلمات الله: «يومَ تأكل منها موتاً تموت»؛ لأنه مات بالفكر وبالإرادة عندما تحوَّل نظره العقلي من الوجود على صورة الله ومثاله إلى الوجود حسب ما أدركه، فصار صورةَ العدم، أي الموت.

وبالسقوط، تحوَّل العدمُ إلى الموت، أي الانحلال بالضعف والعجز، وأدراك عدم القدرة على البقاء. ومِن آدم، ورثنا نحن الموتَ، ذلك المرض القديم الذي يقود إلى

(١) راجع عبارة القداس الإلهي: "مما لم يكن كوَّنت الانسان".

كل أنواع الشرور، ويطوّح بنا في متاهاتٍ وخيالاتٍ كثيرةٍ تجلب علينا دماراً أكثر.

الصليبُ جسرُ الحياة:

٤- وهكذا فقدنا غاية الوجود بالموت، ذلك العدو الذي لم يقوَ عليه مخلوقٌ واحدٌ مهما كان، بل صَرَعَه الربُّ على الصليب، وهتك قوته بالموت الذي ماته للخلاص. قَبِلَ الربُّ الموتَ لكي يأسره ويحوِّله من صورة الانحلال والعدم إلى صورة الرفيق والصديق الذي صار مثل سلاحٍ حادٍ يقتل الخطية.

وهكذا أدرك الرسول قوة التصاق الخطية بالموت؛ لأن الخطية مَلَكَت مثل مَلِكٍ بالموت (رو ٥: ١٤). وهكذا أيضاً، صارت قوة الخطية تسود على الإنسان وتحوِّل "حِسَّ الحياة" فيه، أي حِسَّ البقاء إلى "حِسِّ الموت"، إذا لم ينل شهوته. ودخل الجَزَعُ من فقدان الممتلكات، والخوفُ من فقدان الأشياء والناس ... الخ وهو خوف الموت. و"حِسُّ الموت" فينا يسود على حدٍّ غاية الوجود، ولذلك السبب، جاء الربُّ وفَصَلَ بين الخطية والموت، وداس عرش الخطية، أي الموت، بالصليب وغَرَسَ حياةَ القيامةِ، تلك التي وُلِدَت من القبر بالصليب؛ فأصبح الصليبُ جسرَ الحياة الذي به نعود من قبر الموت إلى قيامة المسيح.

نحن نأخذُ الموتَ، موت المسيح في المعمودية ونجدِّدُ الالتصاق به في إسكيم الرهبنة الرسولي، وبه، أي بالصليب جسر الحياة المصلوبة، نقبلُ الموتَ، ليس موت صورة العدم، بل الموت صورة المسيح المصلوب، الموت المصلوب؛ لكي ندخل الحياةَ القائمةَ من قبر اللذّات والشهوات إلى الحياة التي تشتاق للعودة إلى مصدر الوجود وصانع كل الأشياء، أي الله الآب.

الشهوات الرديئة طريق الموت:

٥– بالحقيقةِ أيها الأخوة، الشهوةُ قبرٌ؛ لأنها تنتهي مهما طالت. وتترك أيُّ شهوةٍ غيرُ مقدسةٍ (فراغاً) وإحساساً بالعدم في القلب؛ لأن الخمر ينتهي، والزنى لا يدوم، والمال لا يبقى، وأخيراً يواجه الإنسانُ ذاته، فإذ هي فارغةً لا تملك حتى حياتها ووجودها، بل مهددةً بالضعف والعجز، ثم القبر.

كلُّ الأشياء –مهما كانت– زائلةٌ، ما عدا الباقيات، أي الفضائل التي تخلق في القلب الشعور والحس الجديد "حسّ الحياة". لنقارن بين الغضب والوداعة. فالأول يترك خلفه العداوة ويشغل الإنسان بأمورٍ تافهةٍ خارجيةٍ، ويقتل فينا روح الشركة، وأخيراً ينكفئ الإنسان على ذاته، فإذ هي فارغةً بلا معنى؛ لأن الشرَّ لا يستمد قوته من الله، بل من الإنسان نفسه، وهكذا نفقد قوتنا بالشرور. أما الوداعة، فهي تخلق الشركة، وتقوّي المَوَدَةَ ويفيض سلامُ الوداعة في القلب، حتى أننا نجد أنفسنا نحب الودعاء دون عناءٍ، ونشتاق لرؤياهم لأن الحديث والعِشرة معهم تجلب تعزيةً للقلب.

كيف فَصَلَ الصليبُ بين الموت والخطية:

٦– يقول الرسول إن الربَّ «حمل خطايانا في جسده على الصليب» (راجع ١ بط ٢: ٢٤)، **وهو يعني بذلك أنه نقلَ الخطيةَ من الإنسانية إلى الموت.** كان هو وحده القادر على أن يعمل ذلك العمل الالهي العجيب. كانت الخطية تدفع أجرةً أثيمةً للخطاة، وهي الموت، وهو ما يقوله الرسول بولس: «أجرة الخطية هي موت» (رو ٦: ٢٣)، **وأخذ الربُّ أجرةَ الخطية، أي الموت، وردَّ هذه الأجرة للخطية. أعاد الموت إلى الخطية لكي يبيد الخطية بالموت حسب كلمات الرسول بولس: «حَكَمَ على الخطية في جسده»** (راجع رو ٨: ٣).

وجاء الحكمُ، حكمُ الإله المتجسد، **بقبول أجرة الخطية أي الموت، وهكذا نقلَ قوة الخطية، أي عرشها إلى الصليب، واصطدمت الحياةُ بالموت، وبدَّد الربُّ بموته ذلك العرش المكين، فصارت الخطية بلا قوة، وفقدت قدرتها على قتل الإنسان بسبب قيامة الرب من بين الأموات؛** لأنه حقاً «أبطل عزَّ الموت» .. وحوَّل الربُّ سلاح الخطية وأجرتها إلى الخطية، وهكذا يقول الرسول: «أميتوا أعضائكم الأرضية» (راجع كولوسي ٣: ٥)، أي تلك التي تسير حسب قانون الموت، وأدرج قائمة الرذائل السمجة: الزنى الطمع والقتل، وسائر الشهوات. وبموت الرب على الصليب، صار الصليبُ علامةَ موت الخطية، وصار في الموتِ حياةٌ لنا بقوة الذي مات على الصليب.

لم يعد الكذبُ نجاة للكذاب؛ لأنه قد ينجو لوقتٍ، ويدركه كذبُه ويحوِّله إلى صورة العدم؛ لأنه يموت فارغاً من الحياة، ولأن قلبه لم يرتوِ من مياه الحياة، يموت مثل أرضٍ ناشفةٍ. وعند الجحيم، تتبدد كل خيالات وأفكار القلب السمجة التي وُلِدت منَّا وتعود إلينا عديمة الحياة؛ لأن مصدرها هو الإنسان المخلوق من العدم. أمَّا تلك التي تُولَد من كلمة الله، أي كلمة الحياة التي لا تموت، فهي تبقى فينا؛ لأنها من الحي إلى الأبد، من الله الذي بكلمة قدرته، خَلَقَ كلَّ الأشياء.

مع المسيح في صَلبِه وقيامتِه:

٧- جاءت الخطية بالموت. أمَّا الربُّ، فقد جاء بالصليب، أي موته المحيي، لكي ننال القيامة، فصار موتُ الصليب هو ذات القوة التي تُبيد الموت.

قبلَ موته المحيي كانت الطبيعة الإنسانية على شفا هاوية العدم، فنقل الربُّ -بالاتحاد به- الطبيعة الإنسانية إلى ما هو كائنٌ وبلا موت، بل الحيّ بقوته

الذاتية، الذي لا يأخذ الحياة من مصدر آخر، أي إلى أُقنومه الإلهي. وجعل الطبيعة الإنسانية حيَّةً بالاتحاد به، فعَتَقَ الإنسانَ من العدم ونقله إلى الحياة التي لا تموت، أي صار هو الرأسُ الجديد وآدم الثاني الذي منه تُولد الحياة التي لا تموت ولا تقوى عليها الخطية كقول رسول الرب وشاهده: «المولودُ من الله لا يخطئ» (راجع ١ يوحنا ٥: ١٨)، وختَمَ هذه الشهادة بقوله: «والشرير لا يقدر أن يمسَّه».

وبموت الرب المحيي، صارت علامةُ اتحادنا به هي قبول، ليس موت آدم الأول الذي فينا حسب طبع الخليقة الأولى، بل موت آدم الأخير ربنا يسوع حسب طبع رأس الخليقة الجديدة. أما طبعُ الخليقة الأولى، فهو تعدِّي حدود الوجود، وتركُ غاية الحياة إلى الشهوة والخطية، وهو ما يؤدي إلى العدم. أما طبع الخليقة الثانية، فهو قبولُ الموت المحيي، موت الصليب لكي نبقى في حدود الطبيعة المصلوبة، فلا نطلب إلَّا القيامة، أي ما هو للحياة، فندركُ -بنعمة الله- الحياةَ الجديدة حسب بر الله في يسوع المسيح، وبذلك نُخلق من جديد حسب المسيح، وليس حسب آدم الأول.

٨- بموت الرب المحيي، صار الصليبُ شريعةَ الحياة والخليقة الجديدة.

أولاً، نحن لا نخلص بوسائل مخلوقة، **وليست الأصوام والصلوات والنُّسك وترك الممتلكات وسائر الممارسات هي الخلاص، بل هي دائرة السلوك حسب الروح، وهي لا تحلُّ محل نعمة المسيح؛ لأن نعمة المسيح ليست الصوم والصلاة، بل هي قبولُ الحياة الجديدة حسب موته المحيي وقيامته المجيدة**. هذا يؤكِّده رسول المسيح بقوله: «مع المسيح صلبت». وقبل ذلك يقول عن كل الممارسات والامتيازات التي كانت له قبل الإيمان: إنها ''نفاية'' (فيلبي ٣: ٨)، أي أنها بلا قيمة؛ لأن «البطن للطعام والطعام للبطن والله سيبيد كلاهما معاً»، أي ليس لهما قوة للبقاء (راجع ١ كور ٦: ١٣).

لا يحسب الإنسان نفسه قديساً بالصوم، بل لأنه تقدَّس بنعمة الروح القدس. والصوم يحفظ الإنسان في دائرة النعمة، أي نعمة التقديس. والذين يمارسون النُّسك بيننا بلا إفرازٍ، ينالون الأجرة الطبيعية، أي العجرفة والكبرياء؛ لأنهم بقدراتهم وتقواهم صاروا حسب الطبيعة المخلوقة من العدم أتقياء وليسوا قديسين؛ لأن التقديس لا يأتي إلا من روح القداسة، الأقنوم الثالث في الثالوث القدوس.

كيف نقبل موت الصليب؟

٩– لنقبلَ موتَ الصليب بالموت عن الخطية، أي لتُصبح قوةُ موت المسيح هي ذات القوة التي تقهر الخوف، ذلك الحس القديم والمرض الأصلي والداء القديم، الذي يجعلنا نطلب أكثر، خوفاً من الموت، ونأكل أكثر؛ لأننا نظنُّ أن كثرة الأكل تُولِّد القوة، ونخزِّن الملابس والأموال مثل ذلك الغني الذي ظنَّ أن حياته في الاتكال على الوسائل المخلوقة، وليست على الله.

١٠– لنقبلَ موتَ الصليب بترك إرادتنا الذاتية (الخاصة).

كان الآباء الذين سلكوا طريق الصليب قبلنا يمارسون ترك الإرادة بوسائل غريبة مثل السير الطويل للحصول على الماء من البئر، أو الوقوف عدة ساعات، وغيرها. ولم تكن هذه الوسائل تُفرض بالقوة، بل كانت تدبير الشيوخ الذين كانت فيهم محبة المسيح الفياضة، ولذلك عندما طلب شيخٌ من تلميذه أن يمسك "ضبعةً"، كانت المحبةُ هي سبب الطاعة. أما الذين يريدون أن يقلِّدوا الشيوخ ويفرضون طاعةً بلا محبة، فهم بلا إفراز ويجلبون على الأخوة قتالات روحية شريرة تضر ولا تنفع.

لنتركَ الإرادةَ الخاصةَ من أجل المحبة، أي محبتنا للرب وللأخوة. وليكن التغصُّبُ من أجل المحبة، وللسعي وراء غاية خلقنا، أي أن نكون على صورة آدم الجديد الرب من السماء (١ كور ١٥: ٤٧).

لنغفر من أجل طعام الحياة:

١١- من أجل الطعام السمائي الباقي خبز الله، أي سر الإفخارستيا المجيد الذي يُعطي لنا قيامةً من الموت، وغفراناً للخطايا، وحياةً أبديةً، من أجل هذه الهبة الفائقة، نغفر، ونصفح، ونصلب إرادتنا لكي نحيا مع الذي صَلَبَ الإرادة، وأقام غلبة الصليب، أي غلبة موته المحيي.

صلوات المزامير صَلبٌ للإرادة:

١٢- قال الربُّ لبطرس: عندما كنتَ شاباً كنتَ تسير حيثما شئت، ولكن متى صرتَ شيخاً، فإن آخر سوف يحملك عندما تمد يديك ويربطك إلى حيث لا تريد (يوحنا ٢١: ١٨). هكذا تحملنا صلوات المزامير إلى حيث لا نشاء، إلى الغضب الكامن في قلوبنا والذي يتحرك فينا عندما نسمع أو نصلي الكلام الخاص بالأعداء. وتكشف هذه الصلوات عن روح الانتقام الكامنة فينا، وتحرك فينا الطعام المخلوط الرديء الذي أكلناه واستقر في جوفنا الروحي، فتنزل هذه الصلوات مثل الملح الذي يقدِّمه الطبيب لكي يتخلص المريض من الطعام المخلوط الرديء الذي يسبب وجع المعدة. هكذا نواجِه خطايانا الداخلية المستترة، وروح البغضة التي فينا والتي تحركها هذه الكلمات المقدسة، وهي اعترافُ النبي والمنشدين العظام بما يحملونه في داخلهم ..

لنصلُب ذواتنا بصلاة المزامير لكي نصلي ليس حسب رغبتنا، بل حسب رغبة الكلمة الإلهية؛ فنصل إلى ميناء الخلاص.

الصوم العقلي يسبق صوم البطن[٢]:

١٣– صومُ العقل يسبق صومَ البطن. وصومُ العقل هو أن نتحرك بقوة نعمة الله إلى مصدر الحياة، أي الثالوث القدوس، وندخل إلى الآب في ابنه ربنا يسوع المسيح بقوة وفاعلية الروح القدس؛ لكي ننال الحياة الجديدة.

لنطرح عنا كلَّ خيالٍ وصورةٍ وفكرٍ ورغبةٍ، بالالتصاق بالذي مات عنّا.

لنقف عند صليب ربنا يسوع، ولتكن الجلجثة (الإقرانيون) في قلوبنا، حيث نُصلب معه بترك كل ما يُبعدنا عن محبة الله.

يا ليتنا لا نسمح لفكرٍ غريب، أو مشاعرَ جيدةٍ بالاقتراب من قلوبنا وعقولنا؛ حتى نصبح أنقياءَ وأطهاراً بالموت عن كل الأمور السابقة. لأننا بهذا الصوم، ندخل أورشليم السمائية كورة الأحياء ونعيِّد مع الرب عيد انتصار الحياة على الموت. فمَن وصل إلى هذه الرتبة، يهون عليه صوم البطن، وتصبح بطنه في عقله، فلا يتحرك فيه ألمُ الجوع والرغبة في الطعام، وإن تحرّكت، فهو يملأ بطنه بكلمة الله الحية، لأن البطنَ تتبع القلب والارادة عند الأحياء بالمسيح، بينما القلب والارادة يتبعان البطن عند الأحياء حسب شريعة آدم الأول، الذي سقط عندما ترك صوم العقل، وطلب طعام الموت، وجلب علينا هذا التحوّل المضاد.

١٤– لنحمل الله، أي صورة الله التي فينا ....
لنَصُم عقلياً؛ حتى نعرف كيف تصوم البطن، لأن عدم صوم القلب لا يخلق صوم البطن. وصومُ الروح يقود إلى صوم الجسد.

طوبى للذين نالوا أتعاب المرض والأوجاع الجسدانية إذا تحرَّك فيهم صوم الروح وساروا فيه، لأن أوجاع الجسد تجعل الروح تنطلق إلى آفاق القيامة. ومتى

(٢) راجع رسالة الأب صفرونيوس عن صوم العقل، نُشرت عدة مرات.

حلَّ إنسانٌ في الإقرانيون (الجلجثة)، وحلَّ فيه الإقرانيون، انطلق إلى الجبل المقدس، جبل الزيتون، أي القيامة، وصار فيه نورُ القيامة المجيدة.

والانقطاع عن الطعام العقلي الفاسد لا يؤهِّلنا لشيءٍ؛ لأننا لا ندخل ميراث المسيح بالأعمال، بل ببر المسيح وبر الإيمان. والفرق بين مَن يصوم عقلياً لكي يبقى نظيفاً طاهراً ونقياً من نجاسات العالم، وبين من يَصِر طاهراً ونقياً بالروح القدس، هو فرقٌ ظاهرٌ: فالأول يبقى في دائرة الطبيعة الإنسانية، والثاني يرتفع إلى حد غاية خلقه، ويتأمل ميراث المسيح ومجد القديسين، ويترك التهاون والتراخي؛ لأن مجد الحياة في المسيح يصبح شجاعته الفائقة التي تجعله يرفض حتى الأمور الطاهرة النقية من أجل عطية وهبة بر الإيمان في المسيح التي هي ثمرة موته المحيي وقيامته المقدسة.

الجهاد الروحي الحقيقي:

١٥– نحن نصون نعمة الله ولا نبددها بالتهاون والتراخي والكسل، وبذلك نتطهَّر جزئياً من هذه الأوجاع بالصوم العقلي. أمَّا الطهارة الحقيقية، فتلك التي يعطيها الروح القدس لنا، ونصبح بها مثل المسيح، وهي لا تُكتسب بالنسك، بل تُصان بالنسك، ولا تُعطى كمجازاةٍ لأنها نعمة الخلاص الأبدي التي وُهِبَت لمن لا يستحقها من الزناة والقتلة وسائر خطاة الأرض.

لنميِّز شريعة الحياة حتى نحيا بها، وحتى لا يسود علينا الموت؛ لأن الرب لم يغلب الموت بالصوم والسهر، بل بالصليب. وهكذا صام وسَهِرَ في الصلاة، ودخل بستان المعاناة (جثيماني)؛ لكي يرفع ذبيحة حياته على خشبة الصليب المجيد رائحةَ بخورٍ، وبذلك أكمل الخلاص الأبدي بموته عنا وبقيامته.

لنعبُر معه بالصليب وبالقيامة بستان المعاناة وبرية التجارب، ولا ندخل

بقوّتنا؛ لأننا لا نعرف كيف نسير بدون خشبة الصليب، وإن سِرنا وحَدنا بالنسك؛ هلكنا كما هلك الذين عاشوا في هذه البرية بدون تواضع الرب وبدون محبته؛ **لأن عجرفة النسك تظهر في المتكبِّرين بميزانٍ لا يخطئ بالمرة، وهو عدم مغفرة هفوات وخطايا الأخوة، واللذة الفائقة التي تظهر فيهم عندما يتحدثون عن سقطات الآخرين.**

الآخر هو صورة الله:

١٦– يقدم لنا سفر الخليقة (التكوين) بدءَ كلِّ الأشياء، بدءَ الأرضِ وكلِّ الكائنات، بدءَ الجنس البشري، بدءَ الحياة، بدءَ الخطية، وبدءَ المواعيد بالخلاص. ومِن كلمات الروح القدس في سفر الخليقة، ندركِ أن الانقسام الحاصل بسبب سقوط آدم وحواء، هو ذات الانقسام الذي أباده الرب على الصليب، فقد قال الرب لآدم وحواء معاً: «إلى رجلك تكون كل أشواقك وهو يسود عليك» (راجع تك ٣: ١٦)، وسيادة الأشواق والتطلع إلى الآخر جَلَبَت الانقسام بين العنصرين الذين منهما ننحدر، أي الرجل والمرأة. ونحن نتعلم عن هذا الانقسام؛ لأننا نولد في هذا الدهر الحاضر الذي يُشرِق فيه نور الإنجيل في دياجير الظلمة الحالكة، ظلمة الشر. ومِن الوالدين، نتعلم كيف نخاف الآخر ونشتهي ما عنده، ومِن المقربين إلينا نتعلم الخوف والشهوة معاً. ونقع في هذا الانقسام المؤلم، لأننا رغم أننا نريد حياة الشركة ونطلبها، إلَّا أننا نخاف منها، ونهدم الشركة بتنوع شهواتنا.

١٧– طوبى لمن يسير كتلميذٍ للرب يسوع المسيح. يتعلم منه المحبة والرفق، ويصبح هو المثال الصالح الوحيد؛ لأن مَن يصلي بسبب الآخرين، تكون صلاته ضعيفة، لأنها ليست صادرة من قلبٍ توَحَّد بالمحبة، بل من قلبٍ يُعان بقوة الشركة. ومَن يسعى في طريق النسك مقلِّداً الشيوخ، يحيا في ظلٍّ آخر، ومنه يأخذ

قانون حياته، ويضعف تدريجياً لأنه ابتعد عن مصدر الحياة الحقيقية، ربنا يسوع.

ليكن المسيحُ وحده هو مصدر الحياة. ونوره وحده هو الذي يحدد طريق حياتنا. أمَّا الآباء والقديسين، فهم رفقاء المسيرة، لا نأخذ الحياةَ منهم؛ لأن لنا ينبوعَ حياةٍ واحدٍ، هو ربنا يسوع المسيح.

١٨- الآخر هو صورة الله. لذلك، فلنفتش عن صورة الله التي فيه، وفيها نجد جذور النعمة التي تجمعنا معاً، وتؤهِّلنا لشركة المحبة. أمَّا إذا صار الآخر مصدرَ خوفٍ وقلق، وصار المحرِّكَ لنا بالمنافسة أو التقليد أو التشبُّه به أو معاداته، فإن حياتنا تضعُف وتفقد القوة الدافعة التي تجعلنا نركض.

طوبى لمن ينال الحياةَ من يسوع المسيح ربنا، ويسير معه الطريق كله؛ لأنه ينال المجد الأبدي.

الخوف من الوحدة:

١٩- لقد كتبتُ لكم بحضور الأب موسى عن الخوف(٣)، ووضعت التعليم الحي الذي أخذناه من الآباء الذين سبقونا. وأكتفي الآن بأن أكرر ما سبق وتحدثنا فيه معاً. الخوف من الوحدة هو خوفُ قلبٍ لم يمتلئ بعد من الروح القدس، ولا زال يضع رجاء وجوده في الناس وفي الاعمال والأقوال التي يقدِّمها الآخرون، أو يقدمها هو للآخرين.

إذا جاز لنا أن نَصِف "اليأس"، أو "قطع الرجاء" بالمقدَّس، فهذا مطلوبٌ من كل إنسان مسيحي، وليس رهبان البرية(٤) فقط (اليأس المقدس هو يأسٌ من الناس بسبب الرجاء في المسيح).

(٣) راجع رسالة الأب صفرونيوس عن "الخوف، أنواعه وعلاجه في الحياة الروحية الأرثوذكسية"، عدة طبعات.
(٤) لم نعثر على هذا التعبير من قبل "رهبان البرية"، ربما يُشير إلى الذين يعيشون بعيداً عن المدن.

٢٠- الرجاء الذي يستقر في قلوبنا من عِشرتنا وشركتنا مع الآخرين، ليكن بقدرٍ محسوبٍ وبإفراز؛ لئلا نهلك إذا كان تعامُل الآخرين معنا هو سبب رجاء حياتنا، وهو ضد وصايا الرب. وهذه هي قواعد إفراز الرجاء الكاذب الذي نجده عند الناس، والذي يعطي لنا حرارةً كاذبةً، وثقةً كاذبةً:

أولاً: إذا عجزنا عن الصلاة ونحن منفردين، وانتظرنا مجيء الأخوة للتعزية.

ثانياً: إذا فرّطنا في قانون حياتنا لأن الذين حولنا لا يعطون لنا تعزيةً، أو التشجيع المطلوب.

ثالثاً: إذا ازدادت فينا الممارسات النسكية عندما نكون مع الآخرين، وضعُفت وانعدمت إذا كنا نعيش وحدنا.

رابعاً: إذا كانت علاقتنا بالرب نفسه تمر من خلال حياة الذين نعرفهم من الناس، سواء أكانوا من الإكليروس أو من المعلِّمين؛ فهذا جحدٌ حقيقيٌّ لنعمة المعمودية عند العلمانيين، وجحدٌ حقيقيٌّ لإسكيم الرهبنة الذي نلبسه كذباً؛ لأن الشوق الذي فينا، لا ينبع من القلب، بل تحرِّكه عوامل خارجية، وليس من ينبوع الحياة أي روح حياة ربنا يسوع المسيح الذي تغرَّبنا عنه بسبب الجهل والضعف الذي فينا، تغرَّبنا عنه بالفكر والممارسة رغم أنه يظل فينا يئن مشتاقاً لخلاصنا.

الروح الناري الذي كان يطلبه القديس انطونيوس الكبير[٥]:

٢١- أما الطوباوي بالحق، أنطونيوس معلم أسرار الملكوت، فقد ترك لنا وصيةً واحدةً، وهي أن نطلب دائماً ذلك الروح الناري لكي يسكن فينا، وأن نطلبه ليلاً ونهاراً حتى يصبح لنا العطش والشوق الحقيقي الذي يستقر في قلوبنا، ولا يحركه الرجاء الكاذب الذي نأخذه من الآخرين.

---

(٥) راجع رسائل القديس أنطونيوس.

٢٢- قِيل عن واحدٍ من الشيوخ إنه رمى نفسه على أرض القلاية عدة أيام، وكان يقول لنفسه هكذا: سوف أرقد في القبر وحيداً دون تعزيةٍ من أحد ودون مودةٍ من بشر، فكيف يا نفسي عشتِ برجاءٍ كاذبٍ طوال هذه الأيام؟ وعند ذلك افتقده الربُّ بتعزيةٍ كبيرةٍ، فأغلق باب قلبه أمام الرجاء الكاذب.

وحقاً قال واحد من الشيوخ: «الذين يطلبون الربَّ بسببِ مودةٍ ودالةٍ، يسقطون سريعاً وتبرد محبتهم للرب؛ لأن المودة والدالة الوحيدة التي يطلبها الله هي مودة ودالة ربنا يسوع المسيح وحده».

عمل الروح القدس في القلب:

٢٣- ما أعظم الفرق بين تعزية الروح القدس وتعزية الناس. تعزية الروح القدس تدوم ولها قوة البقاء؛ لأنها من "الرب المحيي" الأقنوم الثالث. أمَّا تعزية الناس، فهي تذبل سريعاً إلَّا إذا كانت قد نالت مسحة الروح القدس، فهي تبقى في القلب، وتنقلنا من حكمة الناس إلى تأمل حكمة الله. أمَّا إذا توقَّفنا عند حكمة الناس، ولم ندرك حكمة الله، فإننا لا نصل إلى شيء، ويتوقف نمو القلب لأنه يعتمد على ما لا يعطي الحياة، أي الناس الخاضعين "للداء القديم"، أي داء الخوف من الموت، وهو الذي يكبِّل الحياة.

٢٤- ويعمل الروح القدس لأنه يعزِّي ويدين في آنٍ واحدٍ. لا يقطع الروحُ رجاءَ الخاطئ في نعمة الله، ولكن الذي يقطع الرجاء هم البشر وحدهم. وعندما يدين الروح القدس، فهو يدين لكي ينقي. هو لا يسحق، حسب كلمات الروح القدس نفسه: «فتيلةً مدخِّنةً لا يُطفئ، وقصبةً مرضوضةً لا يكسر» (راجع مت ١٢: ١٩ - ٢٠)، بل يعلِّم الحق برفق المحبة؛ لأن رفق المحبة هو حقٌّ. أمَّا الذي يسحق ويكسر ويضرب، ولو حتى باللسان، فهو غريبٌ عن نعمة الله وبوقٌ للشيطان يتكلم في الكنيسة مع المجرِّب، ويعمل ضد المسيح

ويساعد ''المهلك'' (الشيطان) على القضاء على الضعفاء.

٢٥- ينقل الروح القدس الرجاءَ من القلب وقدراته ومن مكافآت النسك إلى الرجاء في الرب وقدراته، وإلى نعمة الملكوت التي قال عنها الرب: «لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت» (لوقا ١٢: ٣٢). أما رجاء الروح القدس فهو رجاءٌ في رحمة الله ومحبته الخاصة للخطاة.

وعندما يدرك الإنسانُ أن خلاصه معلَنٌ في المسيح الذي في الوقت المعين مات لأجل الفُجَّار معلِناً محبة الله (رو ٥: ٦)، فهو لا يدخل إلى حضرة الملك السماوي ببره الخاص، بل ببر المسيح الفائق الذي من خصائصه محبة الخطاة. وهذه الخاصية لا تتوقف عند محبة الناس أو قبولهم لمحبة الله؛ لأن الله يبسط يديه لكلِّ واحدٍ ولا يعاملنا حسب أعمالنا، بل حسب محبته.

كيف نميِّز عمل الروح القدس في القلب؟

٢٦- أولاً: بالرجاء الحي الذي فينا؛ لأن الرجاء الكاذب يعطي لنا الأمل في الأمور الزائلة. أمَّا رجاء الروح القدس، فهو يعطي الرجاء في الملكوت حتى لمن كان قد غطس كله في أوحال الخطية.

ثانياً: بالمحبة التي نمارسها مع أنفسنا ومع الآخرين، لأننا إذا كنا نحب الآخرين بمحبة المسيح، فإننا لا نتوجَّع من عدم محبتهم، بل نتوجَّع إذا توقفوا عن المحبة. ولا تضايقنا خطاياهم لأننا نعرف الضعف البشري وهو لن يفارقنا مطلقاً، بل يضعه الروح القدس تحت سلطانه لكي لا يجرِّدنا من الإيمان، ونسقط في الارتداد مثل بطرس الذي اتكل على قوته وسقط عندما كان قريباً من الاستشهاد وخاف من تهديد الجارية وأحقاد اليهود، فأنكر سيِّده بقَسَمٍ ولعنةٍ (راجع مت ٢٦: ٧٢).

إذا فقدنا المحبة، فقدناها أولاً في عدم محبة نفوسنا؛ لأن مَن لا يحب نفسه لا يحب أخيه، ومَن لا يحب أخيه لا يحب الله. وحقاً قال الرسول إذا كنت لا تحب أخيك الذي تراه فكيف تحب الله الذي لا تراه (١ يو ٤: ٢٠ – ٢١). ونفقدُ المحبةَ بالإدانة، وعندما قال الرب: «لا تدينوا لكي لا تدانوا» (مت ٧: ١)، فقد كان يحذِّرنا من الأُلوهة الكاذبة التي ورثناها من آدم الأول، ومن قدرتنا على الجلوس على عرش الدينونة الخاص بالله وحده. وإدانة الآخرين تجعل الداء القديم (الخوف من الموت) يتحرك فينا ويبعث فينا القسوة، ويفصل عمل الروح القدس في القلب بصورة واضحة عندما يتحرك الفكر والارادة بالخوف أو بالقسوة، لأن الروح الوديع والمتواضع يبقى فينا بالوداعة القليلة التي في قلوبنا ويحركها حتى تصبح قوة قاهرة للخوف، وهذا ما يعلنه الروح القدس نفسه على لسان النبي، وحسب الوعد الإلهي بأنه سوف ينزع القلوب الحجرية ويعطي لنا قلوباً لحمية (حز ١١: ١٩)، أي مِن لحم ذاك الذي قيل إنه اشترك في اللحم والدم الذي لنا لكي يُبطل عبودية الإنسان للخوف من الموت (عب ٢: ١٥).

ثالثاً: ونميِّز عمل الروح القدس في قلوبنا عندما نتأمل غاية أفعالنا وما تميل إليه هذه الأفعال. إذا كانت تتجه نحو إرضاء ذاك الذي منه حياتنا، فإن مشاعرنا وأفكارنا بل ونياتنا، تظهر بوضوح. أما إذا كان الشَّرُّ مختفٍ فيها، فإن غاية أعمالنا تبدو غامضة. وهنا يحرِّك الروح القدس قوة الحياة التي فينا ويجعلنا نتذكر الوصية ويجعل في إرادتنا الثبات والعزم الذي لو وَجَدَ أمانةً كافيةً من جانبنا، لَنمى وتحول إلى ثبات.

شريعة الصليب هي شريعة الروح القدس:

٢٧- قَبلنا الروح القدس في المسيح لكي يزداد الالتصاق به حتى نصبح واحداً معه، وبذلك يؤهِّلُنا الربُّ لأن نكون واحداً مع الآب. وشريعة[٦] الاتحاد بالرب هي شريعة الصليب الذي أعلن جوهر علاقتنا بالله الثالوث القدوس، فقد أعلن الصليبُ لنا المحبةَ المصلوبة التي بلا مقابل، وأعلن لنا قبولنا كخطاةٍ بلا شروط، وأعلن لنا حقيقة عودتنا إلى الله بصلب الحياة القديمة التي تضع شروطاً للمحبة، والتي قال عنها الربُّ إنها متوفرة جداً لدى الخطاة في قوله الإلهي: «فإن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم» (مت ٥: ٤٦)؛ لأن الخطاةَ يحبون أمثالهم من الخطاة، أما المحبة المصلوبة، فهي المحبة التي تقدِّم السلام والصلح والمغفرة للأعداء. ويقبلُ الناسُ الصلحَ والسلام بشروط، أما الرب له المجد، فقد قَبِلَ عودة بطرس دون توبيخ، وبمحبةٍ سأله ثلاث مرات لكي يشير إلى إنكاره دون تأنيب. وهكذا لا يتشبَّه الله بالطبيعة الساقطة التي تضع شريعة العقاب والجزاء، وتطلب المقابل والتعويض؛ لأن إحسان الرب يفوق كل ما نظن أنه صالح ويعلو على أفهام كل ما نملك من معرفة.

٢٨- وإذا كان الصليب يجعل صَلبَ الحياة القديمة ضرورةً، فإن جُود وصلاح الله لم يترك الإنسان أمام ضرورة التخلي عن حياته القديمة بقوة وعزم الإرادة لأن هذا غير ممكن بل هو مستحيل على الإنسانية، ولذلك أعطى لنا الروح القدس لكي يعين ضعف الطبيعة الإنسانية. وماذا يعمل الروح القدس؟ يتكلم معنا في وداعةٍ ورِقَّةٍ ويقرِّب إلينا الأمور السمائية، ويقودنا برفق لكي نتذوق ولو قطرة من المحبة الإلهية لكي نطلب "الملء". ويلمس الروح القدس رغبتنا القديمة في المجد الإلهي، والتي بسببها طُرد آدم من الفردوس، ويعلن لنا مجد السماويات حسب المثال (المِثَل) الذي قدَّمه رب المجد نفسه عن الإنسان

(٦) الكلمة القبطية اليونانية تعني شريعة أو قانون Nomos.

الذي عَلِمَ بكَنزٍ في حقلٍ، ومن فرط شوقه باع كل ما له لكي يقتني الحقل .. هكذا يعمل الروح في قلب الإنسان، ويُحبب إليه مجد السماويات لكي يقبلها وينالها. ولا يُظهِر له الروحُ الاتعابَ أولاً، بل يُظهِر له النعمة والقوة، ومتى أدار الإنسان ظهره للعالم، وقَبِلَ التخلي عن الحياة القديمة، يعلن له الروحُ محبةَ الله تدريجياً، ويؤهِّله إلى قبول التجارب ويعطي له التعزية.

٢٩– يميِّز الصليبُ عمل الروح القدس بوضوحٍ شديد، نلاحظه في لحظات التجارب النابعة من شهوات القلب النجسة. أحياناً يصرخ الروح القدس بشدة ناطقاً كلمات الكتاب المقدس أو عبارات من صلوات الكنيسة. يعمل الروح في القلب بهذا الأُسلوب مثل صراخ الرب على الصليب، وهو يردد عبارة من مزمور ٢٢ «إلهي إلهي ...». وأحياناً يُلهم الروحُ القلبَ بأن يطلب الموت ولا يخطئ أو يشتهي، ويشعر القلب بفرحٍ خفيٍّ لأنه بقى في ظل الصليب، حيث تحوَّل الموتُ إلى حياة. وفي مرات أخرى يسعى المُجرَّب بالشهوة إلى تنفيذ شهوته، ولكن الروح يحمله روحياً إلى الإقرانيون، ويلهب قلبه بحرارةٍ، تزيد أو تنقص حسب نوع التجربة، ويجعله يطلب بحرارة أن ينكِّس رأسه ويُسلِّم حياته كاملة، بل يزيد فيه الأشواق لكي يكون ذبيحة المحبة المصلوبة التي تشتاق إلى مجد القيامة.

الصليب ورشومات الميرون:

٣٠– كان أحد الشيوخ يقول إنه في ساعات التجارب كان يشعر برشومات الميرون على جسده، ورغم أنه نال هذا السر العظيم في صغره، إلَّا أنه كثيراً ما كان يرى صليبَ نورٍ يشعُّ من بعض أعضاء جسده، لا سيما تلك التي تحت البطن[٧]. وهكذا لنحمل ختم الرب[٨] على أعضاء جسدنا لكي يشعَّ هذا

(٧) تحت البطن تعبير مهذب يشير إلى الأعضاء التناسلية.

(٨) ختم الرب هو رشم الصليب بالميرون المقدس.

الختم بنور القيامة في هذا الدهر وبمجد حياة عدم الفساد في الدهر الآتي.

نعمة واحدة:

٣١– ويمتد الصليب، أي موت الرب وقيامته، بالروح القدس؛ لأن نعمةَ الله نعمةٌ واحدة، تُعطى بوسائل كثيرة، **ولكن ما يعطى بواسطة الابن، هو ما يعطى أيضاً بواسطة الآب والروح القدس.** ولأن الرب حَمَلَ هذه العلامات في جسده (علامات الصلب) ودُعيَ "يسوع المصلوب" (مت ٢٨: ٥)، وصار لقباً من ألقاب الرب، فقد دُعي المسيحُ، أي الذي مُسح بالروح القدس (لو ٤: ١٨)، ودُعي يسوع، أي يهوه يخلص (مت ١: ٢١)، ويُدعى المصلوب؛ لأن الصليب هو عرش الرب. **ولما صُلب الرب على الإقرانيون، قدَّم حياته بالروح القدس الذي مُسح به عندما اعتمد في الأردن، والذي قدَّم له جسده في أحشاء البتول عندما حبلت به والدة الاله، وهذا هو سبب استدعاء روح المجد والقوة في القداس الإلهي على الذبيحة المقدسة، لأنها قُدِّمت على الإقرانيون بالروح الأزلي، روح القداسة (عب ٩ : ١٣)، ولأن الذي قدَّمها هو رئيس الكهنة العظيم، هو أيضاً ممسوحٌ بالروح القدس، وتقدمة قربان ابن الله يقدِّمها روحُ المسيح، أي الروح القدس في الكنيسة بواسطة المختارين** (الكهنة) **لهذه الخدمة** (حرفياً ليتورجية).

الروح القدس ينقل إلينا قوة الصليب:

٣٢– ينقل إلينا الروح القدس تعزية المسيح (أع ٩: ٣١)، وصبره (رؤ ١ : ٩) الذي يُوصَف بأنه صبر القديسين. وينقل إلينا محبة المسيح الغافرة، وقوته وقدرته على احتمال الآلام. كما ينقل إلينا شهادة يسوع، وهي بذل الحياة كلها روحاً وجسداً، لكي نكمِّل طريق الصليب الذي شقَّه الروح القدس في أجيال البشر،

والذي يصفه الرسول بأنه كمال آلام المسيح في جسده، لأن عدم مشاركتنا آلام المسيح تجعل آلام الرب ناقصةً لأنها لا تكمُل بدوننا (كو ١ : ٢٤). **وفي كل مرة نرشم علامة الصليب على ذواتنا أو في الأسرار الكنسية، فإننا نرشمها بقوة الروح القدس الذي وحَّدنا مع الرب، وبه قَبِلنا الإيمان بالمسيح.**

الصليب ينقل إلينا قوة الروح القدس:

٣٣– وباتحادنا بالرب في المعمودية المقدسة، صرنا واحداً معه في سِرِّ موته وقيامته (رو ٦: ٥)، ونقلنا الربُّ من الجانب الشمالي رمز الهلاك إلى الجانب اليميني رمز الخلاص. وصار الخلاصُ هبةً سماويةً لنا بلا ندامة (رو ١١: ٢٩). ونحن نتَّحد بالرب في ميلاده، إذ نولد على مثال ميلاده البتولي عندما نولد من الماء والروح القدس في سِرِّ الحميم المقدس (المعمودية) التي فيها نُولَد بدون زرع بشر. وهكذا كما وُلِدَ الربُّ ميلاداً فائقاً للطبيعة، نُولَد نحن بدون أن يكون للإرادة الإنسانية أو اللحم والدم أيُّ تدخل في ميلادنا السمائي؛ لأنه حسب كلمات الرب: "من فوق" (يوحنا ٣: ٣)، أي من الله، وبذلك يتم القول الإنجيلي عن هذا الميلاد السمائي الذي بسلطان الله الآب: «أعطاهم سلطاناً أن يكونوا أولاد الله». وحدَّد الرسول نوع هذا الميلاد: «الذين ولدوا ليس من دم ولا من لحم ولا من مشيئة إنسان». وأعلن الوسيلة: «بل من الله». وكما وُلِدَ الربُّ من الله بالجسد في الزمان مثل ميلاده الأزلي بدون إرادة إنسانية، هكذا نحن أيضاً نُولَد ميلاداً روحانياً على مثال الميلاد البتولي بدون زرع بشر، ولكن بالروح القدس لكي يتم الوعد الإلهي لإبراهيم الذي وَهَبَه اللهُ اسحق بقوة الوعد، وتكوَّن في أحشاء أمه البارة، ليس بقوة الحَبَل والولادة الجسدانية، بل بقوة الروح القدس، فصار مثالاً لكل الذين ينالون بركة الإيمان، أي بركة الميلاد الجديد، أي البركة التي بارَك الربُّ بها إبراهيم.

٣٤- والصليبُ هو جسر اتحادنا بميلاد الرب السمائي من القديسة والدة الإله. فالصليب يفصل بين الموت والحياة، الموت حسب الطبيعة التي قال الرب عنها: «ترابٌ أنت والى التراب تعود» (تك ٣: ١٩)، والطبيعة التي قال الرب عنها: «المولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح» (يو ٣: ٦). والطبيعة الأولى تتوالد وتنمو حسب مقاييس وحدود الطبيعة الأرضية. أما الطبيعة الثانية الجديدة، فهي تنمو حسب بركة الوعد وقوة بشارة الحياة، التي فصل بها الربُّ بين ميلاد الأرض وميلاد الروح. والصليب هو قوة الحياة الكائنة في اقنوم الابن الأزلي. والصليب معروفٌ قبل إنشاء العالم حسب قول الرسول عن دم الحمل الكريم المعروف قبل إنشاء العالم. معروفٌ حسب الروح، وحسب التدبير الأزلي، ولكن كما يقول الرسول: «أُظهِر في الزمان لأجلنا» (١بط ١: ٢٠)؛ لأن ما هو كائن في تدبير الله، وحسب وارادته هو حقيقي، بل هو مصدر كل الأشياء التي تحدث في الزمان. **وهكذا، حسب شريعة الحياة الجديدة، لم يُولَد الربُّ من مصدر للموت، بل من الرب المحيي الذي كوَّن الطبيعة الإنسانية القابلة للموت في أحشاء البتول[٩]، ولكن بقوة الروح القدس لكي يكون اتحاد الحياة بالموت هو اتحاد حقيقي لكي تبتلع الحياةُ الموتَ، وتقيم الحياة الغالبة.** وهكذا كان ميلاد الرب بالجسد مثالاً لقوة الصليب ومجد القيامة، وكان مثل بذرة الشجرة الكبيرة التي أثمرت حياة عدم الموت على الإقرانيون (الجلجثة).

٣٥- وحسب تدبير الآباء، نحن نُدهَن بحنوط الرب في سر الميرون المقدس الذي نُمسَح به مسحة ملوكية سمائية، ومسحة حكمة وحياة، وهو ذات علامة غلبة الحياة للموت؛ لأن ختم الرب الذي يوضَع على أعضاء الجسد هو ختم

---

(٩) نظراً لدقة وحساسية هذه النقطة بالذات، وضعنا عبارات القديس أثناسيوس التي تؤكد أن الرب اشترك في ذات الطبيعة الإنسانية القابلة للموت.

الروح القدس، وهو وشم (رشم)[١٠] الصليب. **ولأن الميلاد البتولي هو مثالٌ للصليب، أي اتحاد الحياة بالموت، وسيادة الحياة على الموت، تُوضع حنوط الرب في جرن المعمودية لكي تؤكد لنا سيادة الحياة على الموت في سر الحميم المقدس وسر المسحة السمائية.**

٣٦- ولما اعتمد الربُّ في الأردن وحَلَّ عليه الروح القدس، وسُمي "المسيح الرب"، صار كل مَن يعتمد، ينال ذات الاسم ويُدعى "مسيحياً"، أي الذي يُمسح بالموهبة السمائية والعطية الفائقة، روح الآب، **وينال شركةً في موهبة البنوة التي هي بنوة الابن السمائي، والتي هي صفته الذاتية الأقنومية، وهي تُختم فينا بالصليب لأن الصليب فَصَلَ بين العبودية والبنوة، وقطع أغلال ورباطات الفرائض التي كانت ضدنا (كو ٢: ١٤). وهكذا ندخل إلى شركة الثالوث مولودين من فوق، مختومين بمسحة الابن، متَّحدين معه وبه وفيه بالآب وبالروح القدس. وصارت معموديتنا هي علاقتنا الأبدية بالله، وهي القوة المحرِّكة لكل أفعالنا.** ندخل إلى هذه الشركة كعبيد، ولكن ترفعنا الشركة وعطية الروح القدس إلى رتبة التبني. ندخل مكبَّلين بأغلال الفرائض لكي ننال روح الحرية، أي اتحادنا بالرب (كو ٢: ١٦). ويُشرقُ الصليبُ علينا كنورِ حياةٍ، ويصبح هو «الرُّبُط والمفاصل التي تربط الجسد كله، أي جسد المسيح الكنيسة» (أف ٤: ١٦).

صليب ربنا يسوع المسيح هو الرِّباط الروحي بين الأعضاء:

٣٧- يجب أن نفرح -يا أحبائي- لأننا دُعينا "لبَّاس الصليب". وما لبسناه في المعمودية ورشومات الميرون، يصبح الآن شريعة الحياة الجديدة الناهضة من شهوات العالم. نحن لسنا أفضل مِن الذين في العالم، بل نحن

(١٠) "رشم" كلمة سريانية تعني "ختم"، وهي ترجمة سريانية للكلمة القبطية اليونانية Sophrages.

مثلهم، أعضاء في الجسد الواحد، الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية، ومثلهم قد صرنا في رباطٍ روحيٍّ لا ينفك؛ لأن قوة الصليب لم تنحل، بل صارت -في كلِّ جيلٍ- هي الرباط الروحي والختم الذي لا يمكن أن يزول. حتى في الهالكين، يظل ختم الصليب نوراً وحياةً، تدين الهالكين، وتشُقُّهم من الوسط (لو ١٢ : ٤٦)؛ لأنها تجعل حياتهم ناقصةً لأن العطية التي أخذوها تختلف عن الطبيعة التي كوَّنوها لأنفسهم(١١)، ويصبح عدم كمالهم ونقص حياتهم هو ما يجعلهم يقفون مع "الجداء" حسب المَثَل الذي علَّمنا إياه ربنا يسوع المسيح. فالعطيةُ تختلف عن الحياة التي عاشها هؤلاء، وتصبح العطية الإلهية بلا مكان في حياة الهالكين، فيدخلون حياة الدهر الآتي بطبيعةٍ مشوَّهةٍ عاجزةٍ عن البقاء في النور.

ويربطنا الصليبُ برباطٍ لا ينفك؛ لأن الصليب جَمَعَ الحياةَ والموت معاً، وأباد الموت، وصار هو النور الذي يكشف ظلام البُغضة، وفساد الكراهية، وقسوة العداوة.

صار الصليبُ هو المِفصَل الروحي الذي يتحرك حوله ويحرِّك كلَّ عضوٍ في جسد الرب. يحرِّكنا نحو المصالحة والمحبة، وبه نتحرك ضد العداوة والخصام والانقسام. هو «رُبط» (أف ٤ : ١٦) الجسد كله، وهو الذي يُعطي روح المؤازرة ويعضد كل عضو؛ لأنه قوة الرب التي تدفعنا للحياة.

يكشفُ الصليبُ عن الكذب، ويعطي قوة الشهادة للحق؛ **لأن الذي قال: «أنا الحق» مات مصلوباً، وجعل الحق يَعْتلي عرش الصليب.** ونحن، عندما نحيا مع يسوع الرب المصلوب لأجلنا، ونقول مع الرسول: «مع المسيح صُلبت»، فإننا ندخل أعماق عطية وموهبة الروح القدس، لكي يتم فينا حكم الحياة

(١١) الإنسان يخلق حياته الداخلية بأعماله. فإذا كانت حسب نعمة الله صارت مقدسة متناغمة مع النعمة وفي انسجام ووحدة معها، أما إذا كانت غير مقدسة فهي تختلف طبيعةً وهدفاً، وهذا هو معنى العبارة السابقة.

الحقيقية على الطبيعة المائتة، أي الآدمية الأولى، فننال الطبيعة الآدمية الجديدة التي هي يسوع المسيح ربنا.

الحياةُ الذي سَكَنَ في الموت:

٣٨– عندما تجسَّد الكلمة ابن الله الوحيد «وسكن بيننا»(١٢)، سكن الحياةُ في الموت. سكن أولاً في بطن البتول والدة الإله حياةً في موت. حياة إنسانية هي جسده المقدس القابل للموت، في رحم إنساني قابل للموت، ولكن كلاهما ينتقل من الموت إلى الحياة بقوة وأُلوهية الحياة التي لا تموت. سكن بيننا وصار جسده المقدس ينبوعَ شفاءٍ وحياةٍ لكل مَن لمسه مثل المرأة النازفة الدم، والزانية في بيت سمعان الفريسي. ولكن كان من الضروري أن يدخل إلى القبر، لكي يأسر الموتَ ويسبي الهاوية ويطلقُ سراحَ الأسرى.

حلَّ الحياةُ في بطن البتول لكي يغلق بابَ الموت. وحَلَّ الحياةُ في الناسوت لكي يغلق بابَ الفساد. وصُلِبَ على أداة قتل اللصوص، أي الصليب، وحوَّله إلى ينبوعِ حياةٍ. وحَلَّ في القبر، فأضاء بنور حياته على الذين في الهاوية.

حلَّ الحياةُ وسكن في كل صور الموت؛ لكي يبيد الموت ويحول الموت إلى حياة.

حوَّل الميلاد الجسداني إلى ميلادٍ من فوق، وحوَّل الناسوت إلى عدم فساد، وحوَّل القبر إلى صديق يلازم سكون وراحة الأتعاب إلى فجر مجد أولاد الله.

المحبة والحق، واسم المحبة الجديد:

٣٩– بالمحبة التي تعلو على كل وصف وعلى كل إدراك، حتى إدراك

(١٢) حسب الترجمات القديمة: القبطية، والعربية وغيرها يجب أن نقرأ النص «وسكن فينا» أي في طبعنا الإنساني. هكذا قرأ آباء الإسكندرية هذه العبارة من إنجيل يوحنا منذ عصر العلامة أوريجينوس.

السمائيين أنفسهم، لأنهم دُهِشوا من تواضع الله، وتنازُلِه إلى رتبة الآدميين، (بالمحبة) قادنا الربُّ إلى الحق، وبرفقٍ شفى نفوسنا. والمحبة تسير على قدمي الحق. **وإذا سار الحقُ بدون المحبة، تحول الحق إلى أداةٍ للبغضة، وفقَدَ قدرته على أن يعيد الهالكين إلى الحياة**، ولذلك السبب قيل عن الرب يسوع المسيح إنه «مملوءٌ نعمةً وحقاً» (يوحنا ١ : ١٤)؛ لأن النعمة لا تعمل بدون الحق، والحق لا يعمل بدون النعمة. **والنعمة هي الاسم الجديد الذي أخذته المحبة**، لأن قول الإنجيلي عن الرب يسوع إنه «مملوءٌ»؛ لأنه فيه حلَّ «كلُّ ملء اللاهوت» (كو ٢ : ٩) عندما تجسد. ونحن أخذنا من هذا الملء؛ «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس» (رو ٥ : ٥).

وعندما تسكن فينا هذه النعمة، فإننا نتعلم من المحبة كيف نقدِّم الحقَ برفقٍ للضعفاء، وبحزمٍ للمتراخين، وبتواضعٍ للساقطين، وبقوةٍ عن الشهادة، وبإفرازٍ للتائهين، وبوداعةٍ للمرضى بالغضب، وبطهارةٍ للساقطين في نجاسات الجسد، وبحزنٍ لغير التائبين، وبمغفرةٍ للخطاة للذين يخطئون ضدنا. **أمَّا إذا قدَّمنا الحقَ عارياً بلا محبة، تحول الحقُ إلى أداةٍ للقتل، وسيفٍ للهلاك، وفقَدَ الحقُ صلته بدموع القلب، وأنين الروح، وتحول إلى دينونة، وجلس على عرش الابن بدون استحقاق؛ لأن الديان العادل، ربنا يسوع المسيح، يجلس على عرش الدينونة، وفي يديه جروح مسامير الصليب، مؤكِّداً أنه ليس فقط الديان، بل أيضاً المخلِّص والفادي.**

٤٠– يقول ربنا يسوع المسيح للمؤمنين باسمه إنهم سوف «يتكلمون بألسنةٍ جديدةٍ» (مرقس ١٦ : ١٧). لنطلب ذلك اللسان الجديد، وهو لسان المحبة الذي يفوق كلَّ ما يمكن أن نتكلم عنه باسم الحق؛ لأن المحبة هي المِسحة الملوكية التي لنا من ربنا يسوع المسيح. وحقاً قال الرسول: «الله محبة» (١يو٤ : ١٦)، وكل مَن هو من المحبة يثبت في الله، وإذا ثبت في المحبة تعلَّم الحق من الله.

ولذلك قال الأب برصنوفيوس إن "الحقّ هو الاسم الثاني للمحبة"، وهو قولٌ يكشف عن إفرازٍ؛ لأن الله دعانا بمحبته «إذ ونحن خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو٥: ٨)، معلِناً لنا محبة الخطاة التي كانت مستترة في التدبير الإلهي، وفي انتظار تجسد الابن الوحيد. وبقول الرسول: «ولكن الله أظهر لنا محبته» (رو٥:٧)، فقد جعل إعلان المحبة هو إعلان الحق.

الحق بدون المحبة يكشف عن خطايانا:

٤١– وعندما أعلن الله محبته كحقٍّ ثابتٍ مختوم بدم ابنه الوحيد، أفرز الله بنفسه –أي بتواضعه وغفرانه غير المحدود– إعلان المحبة على حقٍّ ثابتٍ عنده هو، وهو أنه لم يطلب إرضاء ذاته، ولذلك أوحى للرسول بولس أن يكتب هذه الكلمات: «المحبة لا تطلب ما لنفسها» (١كور ١٣: ٥). ولذلك، عندما جاء ابنه لكي يمزِّق صك خطايانا، لم يطلب منَّا شيئاً، بل بتواضعه ومحبته محا كل ما علينا بلا مقابل معلِناً فيض المحبة الإلهية. وهكذا، عندما نتعدَّى هذا الحق ونرفض المغفرة للخطاة ونرد الإساءة بمثلها، فإننا نضع أنفسنا خارج محبة الله، أي في الظلمة الخارجية؛ لأن «الله نورٌ وليس فيه ظلمة بالمرة» (١يو ١: ٥)، وكل مَن يبغض هو في الظلمة، والظلمة قد أعمت عينيه.

٤٢– لنراقب قلوبنا بكل صرامةٍ؛ حتى لا نقع في أعمالٍ قد تبدو معقولةً ومقبولةً، ولكنها تكشف عن جذر الخطية في قلوبنا، **أي العداوة وعدم مغفرة** الإساءات بكل أنواعها؛ **لأن جذر عدم المغفرة، ليس فقط الداء القديم "الخوف من الموت"، بل هو أيضاً الجهل التام بطبيعة الله.**

لنطرح أنفسنا على أرض القلاية، ونطلب بدموعٍ، ذلك الروح الناري لكي نستحق أن نكون مع آبائنا القديسين الذين امتلئوا بالروح القدس الناري، روح المحبة الذي يحرق كلَّ ضعفٍ وعجزٍ فينا.

المحبة هي حق الصليب:

٤٣– أعلن الصليبُ حقَّ المحبة: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا٣: ١٦). **وبعطية المحبة الإلهية الفائقة، أي عطية الحياة الأبدية، ثبَّت الآبُ حقَّ الصليب الذي أسسه على موت ابنه الوحيد؛** لأنه لم يُمسك ابنه الوحيد، بل بذله لأجلنا (رو٨: ٣٢)، وجعلنا معه ورثةً وشركاء مجده الإلهي (رو ٨: ١٧). ولقد وهب الله لنا هذا بلا مقابل، فصار "حق الصليب" يُعطى بلا مقابل للمؤمنين.

الحق هو عطية الروح القدس في المسيح:

٤٤– ولما فتَحَ لنا ربنا يسوع المسيح كنوزَ الحياة السماوية، أعلن لنا عن مجد الملكوت وكمال المحبة الإلهية بموته المحيي وقيامته وبعطية الروح القدس الذي سكبه علينا ليس بمكيال (يوحنا ٣: ٣٤)، بل حسب جوده وصلاحه، وليس حسب احتياجات البشر، بل بما يفوق حاجات كل البشر، لأنه يعطينا أكثر مما نظن أو نفكر (أف ٣: ٢٠). ولما تحقق الرسول من فيض المحبة الإلهية قال: «انظروا أية محبة أحبنا بها الله لأنه أعطانا روحه القدوس» (راجع١يو٣: ١). وبعطية الروح القدس صار «روح الحق» ساكناً فينا، ليس حسب الشريعة القديمة "عين بعين وسن بسن"، وبالتالي "قداسة تقابل قداسة"، و"خير يقابل خير"، بل بسخاءٍ وجودٍ ولطفٍ إلهيٍّ لا يُوصَف، فصار الحقُّ عطيةً، أي عطية روح الحق البارقليط، الذي إذا سكن فينا يرشدنا إلى جميع الحق، أي الحق الذي يعلو على أحكام الشريعة، لأنه عطية الله في يسوع المسيح.

الثبات في المسيح:

٤٥- أما عن ثباتنا في المسيح[١٣]، فحسب قول الرب إننا بالتناول، وبعمل الروح القدس فينا نثبُت فيه. والثبات يبدأ بالمحبة، لأن الذي يحب يعرف الله معرفةً حقيقيةً. والذي يحب، يترك الظلمة، أي ظلمة البغضة ويسير في نور الشركة. **والثبات في المسيح هو وعدٌ إلهيٌّ من الرب نفسه حسب قوله: «أنا هو الكرمة الحقيقية وأبي الكرام كل غصن يثبت فيَّ»** (يوحنا ١٥ : ٢)، **وثبات الأغصان في الكرمة هو ثباتٌ مؤسَّسٌ على المسيح ربنا "الصخرة" التي لا يمكن أن تتزعزع.**

٤٦- نحن في المسيح يسوع بسبب وجود طبعنا الإنساني فيه، أي بسبب تجسد الابن الكلمة. وباتحاده بنا، صار لنا نحن البشر وجودٌ في الرأس الجديد، آدم الثاني. وهو فينا بلاهوته؛ لأنه خلقنا حسب صورته ومثاله، وجدَّدنا فيه لنكون على هذه الصورة، أحياء لله الآب به وفيه، به أي بواسطته، وفيه لأن الطبيعة الإنسانية فيه بسبب تجسده. وهكذا، به لأنه الوسيط، وفيه لأنه الرأس الجديد الذي منه ننال الحياة الجديدة.

٤٧- وماذا ننال مِن المسيح؟ أولاً الحياة التي لا تموت، والتي لا يقوى عليها الموت، ولا تقوى عليها الخطية. وحتى إذا خرجنا بإرادتنا خارج الفردوس الجديد، ربنا يسوع، وعشنا في الخطية، فإن الله لا ينكر نعمته ولا يجحد عطيته، وإنما نحن الذين نخسرها. وإذا عُدنا، فإننا نصبح مثل الابن الضال الذي عاد إلى ميراثه، رغم أنه لا يستحقه.

٤٨- نحن سوف ندان على عدم التوبة، ولن ندان على خطايانا؛ لأن ربنا يسوع المسيح قد أبطل دينونة الخطية حسب قول رسوله وشاهده: «لا شيء

---

(١٣) يبدو من هذه العبارة أن الموضوع نفسه كان سؤالاً أو ربما رسالةً موجَّهةً للأب صفرونيوس.

من الدينونة على الذين في المسيح يسوع» (رو ٨: ١). ونحن لا نُدان حسب شريعة موسى، **وإنما نُدان حسب شريعة روح المسيح التي تُحيي الموتى وترد ميراث الضال، وتعيد المجد الإلهي لصورة الله التي تلطَّخت بالخطية، وتغسل الإنسان من الموت والفساد، وتطرح خطايانا في بحر النسيان (ميخا ٧: ١٩)، وتعيد إلينا ملكوت السموات.**

وهكذا، تصبح الدينونة هي فقدان الميراث، وخسارة العطايا وليست دينونة الخطية؛ لأن الخطية قد أدينت في الصليب.

٤٩- ولما أبطل الربُّ حكمَ الموتِ بالصليب، وقتَلَ العداوةَ بموته، لا تبقى بعد العداوةُ أساس الدينونة، بل نار المحبة الغافرة التي تطهِّر التائبين، وتُرعِب الخطاة.

٥٠- وبموت الربِّ على الصليب، أبطل الربُّ حكمَ الناموس وكل أحكام الشريعة، **وأصبح الصليبُ هو معيار الدينونة،** أي دينونة ذاك الذي غسل الأرجل مثل عبدٍ، ونزل إلى أعماق الجحيم لكي يطلق سراح الأسرى.

٥١- وأكَّد الرسول أن الدينونة هي حسب شريعة روح الحياة الذي حرَّرنا من الموت (رو ٨: ٢)، وأن الناموس العاجز عن رد الحياة للخطاة، هو أحد أسباب موت الرب على الصليب، ولذلك لن يعود الناموس إلى دوره القديم الذي أبطله الصليب؛ **لأن قوة الصليب هي قوة الحياة، وقوة الناموس هي قوة الموت، ولا يوجد مجال للمقارنة بين الحياة في يسوع المسيح «المملوء نعمةً وحقاً» (يوحنا ١: ١٤)، والناموس الذي يقضي بموت الخطاة،** والذي أُكمِلَ حكمُه بموت الرب عن الجميع، وفقَدَ دوره تماماً إذ حلَّ ابن الله محل الشريعة القديمة وغرس ناموس الحياة حسب روح الحياة.

٥٢- لنثبُت في الرب لكي ننال منه الحياة الباقية، أي الأبدية، **ولا نجعل**

بيننا وبين الرب وسيلةً أخرى غير نعمته التي تعطي لنا الحياة. يقول الرسول: «الأطعمة للجوف، والجوف للأطعمة، والله سيبيد هذه وتلك» (١كور٦: ١٣)، والقلب لا يثبت في المسيح بالممارسات الخارجية، مهما كانت، بل بتسليم الارادة، والمحبة، والالتصاق الحقيقي بالرب.

٥٣- لنثبُت في الرب بالبقاء في النعمة، وذلك عندما يصبح الرب يسوع المسيح هو الوسيلة الوحيدة، وهو الغاية الوحيدة التي نملكها لكي نصل إلى الآب السماوي بمعونة وقوة الروح القدوس الساكن فينا رغم خطايانا.

٥٤- لنؤمن بأن النعمة تبيد الخطية، لأنها نعمة الحي القائم من الأموات بمجد الآب (رو ٦: ٤)، ولا نفقد الرجاء لأن خطايانا لا تبيد نعمة المحيي الرب قاهر الموت مبدد الظلام. يغلب النورُ الظلمةَ، ولا تغلب الظلمةُ النورَ.

صفرونيوس يسأل بركة صلواتكم
لكي أثبت معكم بالمحبة في يسوع المسيح
ملكنا ومخلصنا (١٤)

I | C

(١٤) نقلًا عن المخطوطة.

أعطانا الربُّ الإله موهبةَ الإدراك والنطق لكي نضيف نحن المخلوقين من العدم تسبيحاً يفوق تسبيح القوات السمائية؛ لأننا نسبِّح ونمجِّد الآب في ابنه وبالروح القدس.

والتسبيح -أيها الأحباء- ليس مجرد نطق كلمات، بل هو امتلاء القلب من حرارة المحبة، لكي تتحول هذه المحبة إلى تسبيحٍ عقليٍّ يفوق الكلمات، وعندما تهدأ هذه الحرارة، أي حرارة الروح، نتكلم بكلمات الإدراك والفهم.

نحن نذوق أولاً بالقلب، ثم نتكلم بالعقل وبقدرة النطق. نرى أولاً، ونتكلم ثانياً. والكلام بدون الرؤية هو كلامٌ عادمُ الحياة. وهذه هي شهادة المزمور: «ذوقوا وأنظروا» (مزمور ٣٤: ٨)؛ لأن الذي يذوق أولاً، يستطيع -بالنظر العقلي- أن يدرك مقدار النعمة الإلهية التي سكبها الآب السماوي حسب شهادة الرسول: «محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بعطية الروح القدس» (رو ٥: ٥). وهكذا، نحن ننال هذه المحبة الحارة لكي نسبِّح ذاك الذي كان ينتظر من قبل خلق العالم أن يفتح ينابيع جوده وطوفان مياه محبته لكي يُحيي الخليقةَ ويُميت الخطية وينقل أوجاع الشر إلى بئر العدم.

جذور
GOZOOR